على هامش النثر :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

(تتمة)

هل هناك مذهب جديد ؟

كان هذا هو السؤال الذى جعل الجواب عليه هو الفصل الأخير من الكتاب ، وناقش فيه من يدعون إلى العامية ، ومن يدعون إلى الرمزية . والعامية ليس من الضرورى أن تكون عامية اللفظ ، فهى عامية التعبير وعامية التفكير . وقد لا تكون الألفاظ عامية ، ثم تكون طريقة الأداء عامية ، كما تكون كذلك طريقة التفكير

وفى سياق بحث الموقف الحالى للأساليب العربية شرح تطورات أساليب النثر العربى شرحا مختصراً وافياً دقيقاً ، ولخص مذاهبه تلخيصا جميلا مفيداً ، ورتب على هذا التطور نتائجه المنطقية ترتيبا بارعا وصادقا فى الوقت ذاته .

وفى اعتقادى أن هذا الفصل هو أبرع فصول الكتاب وأدقها وأصدقها . وهو كذلك بحث جديد فى المكتبة العربية ، لم يلخص من قبل مثل هذا التلخيص .

وأحب أن أشرك القارىء معى فى تقدير قيمة هذا الفصل الجيد من فصول الكتاب .

جاء فى ص ١٢٥ :

« ... إن المذهب الكتابى أو الشعرى إما أن يكون مرحلة تطور لمذهب يتقدم به مبتدعوه ، وإما أن يكون رد فعل لمذهب يغلو فيه متبعوه . فأسلوب عبد الحميد بن يحيى إنما كان الطور الأول للاسلوب العربى الضيق الموجز ، دعت إليه مقتضيات المجتمع الجديد من تشعب أطراف الدولة ، وبدو ثمار الحضارة ، ودنو العربية من الفارسية . وأسلوب ابن المقفع الذى ظهر فى فجر الحضارة العربية كان طوره الثانى ، دعا إليه اتساع الخلافة ، وتنوع الثقافة ، وشدة اختلاط العرب بالفرس . ثم كان طوره الثالث أسلوب الجاحظ الذى اقتضاه نقل العلوم الأجنبية ، وازدهار المدنية العباسية ، وانتشار المقالات الإسلامية ، وتعقد الحالة الاجتماعية ، وتولد المعانى الحضرية ، واقتباس الآراء الفلسفية . ثم أترف المسلمون ، وتقلبوا فى أعطاف النعمة ، وتأنقوا فى مظاهر العيش ، فظهر طوره الرابع فى أسلوب ابن العميد المنمق المسجوع . وإلى هنا كان التطور فى النثر الفنى تطورا طرديا يسير من الضيق إلى السعة ، ومن الجزالة إلى الرقة ، ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة . فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله بدت على الكتابة أعراض الفساد والوهن ، فكثرت المعانى المزيفة ، وانتشرت الصنعة المتكلفة ؛ وكان من ذلك مذهب القاضى الفاضل وهو الطور الخامس من أطوار الأسلوب العربى ، غلا فيه أصحابه حتى أفسدوا الفكرة بالتفاهة والمبالغة ، وشوهوا الصورة بالزخرف الكاذب والسجع المجتلب . ومن هنا كان رد الفعل بظهور طريقة ابن خلدون ، إذ رغب عن السجع ، وزهد فى البديع ، وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك فى كلامه عن كتابته لأبى سالم أحد ملوك الأندلس قال :

« وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف احتمالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة »

« وآثر النابغون من خريجى المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة ، الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية ، لجريانها مع الطبع ، وملاءمتها لروح العصر ، ومشابهتها الأساليب الغرب ، فظهرت مهذبة عذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعى رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر ، من أمثال الشيخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكرى ، وحفنى ناصف ، ومن حذا حذوهم . وبدت على أسلوب هؤلاء مظاهر التكلف ، فأسرفوا فى المحاكاة ، وأوغلوا فى الصنعة ، وتشددوا فى القياس ، وتصعبوا فى استعمال اللغة . كما بدت على أسلوب أولئك مظاهر التطرف ، فتجوزوا فى القواعد ، وتسامحوا فى اللغة ، واستخفوا

بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامية . وفى ذلك الوقت نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة . فكان من رد الفعل الذى لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعا . تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربى الخالص مكمّل النقص بما فاته من صور البيان ، لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الفكرى الحديث. استبانت هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ، كما استبانت فى شعر البارودى . ثم نهجها الكتاب الموهوبون المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد ، فبلغوا بالنثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره . فالأسلوب الذى كتب به المنفلوطى والبشرى والرافعى ، ويكتب به العقاد وطه حسين والمازنى ، هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف ، والعمق والضحولة ، والدقة والتجوز ، والتركز والانتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهى الصحة والنقاء والمرونة ، وفى الخصائص الأصيلة للبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلاؤم ... ... »

لقد استطردت فى الاقتباس من هذا الفصل القيم ، لأننى معجب بتصوير هذا التطور والتسلسل فى ذلك الحيز الضيق بمثل هذه النصاعة ؛ ولأننى أريد أن أدعو وزارة المعارف للانتفاع بهذا الفصل خاصة — إن لم يكن بالكتاب كله — فى مدارسها ومعاهدها بدل تلك الفصول القاصرة البائسة التى يدرسها طلاب المدارس الثانوية !!

***

والآن وقد استعرضت وناقشت الأسس العامة فى كتاب « دفاع عن البلاغة » يعن لى أن أناقش بعض الموضوعات الفرعية التى جاءت هنا وهناك فى الكتاب

يناقش المؤلف رأيا لأميل زولا فى البلاغة ، واستعراض هذه المناقشة مفيد فى بيان رأى المؤلف وزيادة إيضاحه .

قال إميل زولا :

« ليس من مطلق الحق — وإن عارض بوفون وبوالو وشاتوبريان وفلوبير — أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له فى الأدب طريقا يبقى على الأبد . إن الشكل عرضة للتغير والزوال بسرعة . ولا بد للعمل الكتابى قبل كل شىء أن يكون حيا ؛ ولا يمكن أن يكون حيا إلا إذا كان حقا . والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية »

ثم يقول بعد ذلك :

« وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ »

ويعلق الأستاذ الزيات على هذا الرأى فيقول :

« وهذا القول ظاهر البطلان ، لأن المخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب ، لا يتسنى لها البقاء على توالى الأعقاب والأحقاب إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان »

« أما قوله : « وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ » فمراده أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الدهر إلا بمعانيها المتكررة ووقائعها المشوقة ، وعواطفها الصادقة ، وشخوصها الحية ، بدليل أننا نقرؤها اليوم بمعانيها لا بمبانيها ، وبفكرها لا بصورها . فلو كان خلودها منوطا بدقة الصياغة وجودة الصناعة لما عاشت بالترجمة . ثم يترتب على ذلك خطأ القول باتحاد الصور والأفكار فى الأسلوب ، لأننا حين نقرأ الإلياذة مثلا فى الفرنسية أو فى العربية لا نقرأ منها عين الموضوع .

« والحق الذى تؤيده الدلائل أن جمال الأسلوب وحده هو الذى ضمن الخلود لهذه الروائع ؛ فإن الثابت بالسند المتصل والخبر المتواتر أنها كانت آية عصرها فى البلاغة ، ولولا ذلك ما رووها الرواة ولا ترجمها التراجم »

ونحن نرى أن إميل زولا كان على كثير من الحق وهو يقول : « والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية » وليس هذا القول « ظاهر البطلان » كما يرى الأستاذ الزيات ؛ كما أن تعليق الأستاذ بعد هذا صحيح ، ولا تتناقض صحته مع صحة رأى زولا فى شىء . فالمخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب لا يتسنى لها البقاء إلا بالأسلوب »

ولكنها يجب أن تكون « حية » ليحتفظ الأسلوب لها بالحياة وإلا عجز عن منحها الحياة !

وكذلك نحتاج إلى شيء من التحفظ فى تعليق الأستاذ على خلود روائع هوميروس وفرجيل ؛ فليس الأسلوب «وحده» هو الذى ضمن لها الخلود ، فلا بد من عنصر آخر حى مع الأسلوب ، كما اتفقنا من قبل ، الأستاذ وأنا ، على هـذا الأصل الكبير (فى أول مقال)

ويستطرد الأستاذ فى تعليقه فيقرر فى شأن الترجمة رأيا صحيحا نرجو أن ينتفع به من يتصدون لترجمة روائع الأدب العالمى ! ذلك حين يقول فى ص ٧٢ :

« والترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الأصل ؛ إنما تنقل مع ذلك إشراق روحه ، وسمو إلهامه ، ولطف شعوره ، ونمط تفكيره ، وخصائص أسلوبه . فلو أن ترجمانا ضعيف العربية من تراجم المحاكم حدثته نفسه أن يعرض لإحدى روائع شكسبير فنقلها نقلا لفظيا بأسلوبه الذى يترجم به عروض الأحوال ، أو أصول الأحكام ، فهل نقول إذا استطعت أن تقرأ ما كتب إنك قرأت شكسبير ؟ أم ترى أنك قرأت ألفاظا كالعظام المعروقة المبعثرة ، لا تمثل من أى حيوان معنى من معانيه ، ولا صورة من صوره ؟ ... الخ »

وهذا دستور جيد للترجمة . وأشهد أنى أقرأ فى هذه الأيام مترجمات لا أدرى إن كانت على رأى البحترى ، إن كان صنع إنس لجن ، أم صنع جن لإنس ! فلعل من يتصدون للترجمة ينتفعون بهذا الدستور القويم !

* * *

وأخيراً نقف أمام لفتة طيبة تقرن فحولة الفن بفحولة الأمة عامة وفحولة البطل منها خاصة ؛ وهى لفتة صادقة ولكننا لا نثبتها هنا لمجرد الصدق ، بل للتوجيه أيضا :

جاء فى ص ١٢٢ :

« وازن بين عصر وعصر فى الأدب ، أو بين أديب وأديب فى الأسلوب ، تر الفرق بينهما إذا حللته لا يخرج عن قوة الرجولة فى هذا وضعفها فى ذاك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان ، كانت أزهى عصور البلاغة ، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع فى سبيل الحياة والغلبة والمجد والمرأة أشد ما تكون تماما واضطراما وقوة . فلما قتل الترف الرجولة ، وأذل العجز النفوس ، زهقت روح الفن ، وذهبت بلاغة الأسلوب ، وأصبح أدب الأديب سخفا وزيفا وثرثرة »

وجاء فى ص ١٢٣ :

« إن الأدب البليغ كامن فى البطل على أى صورة كان . فهو إن أنتجه برز فيه ، وإن لم ينتجه شجع عليه . لذلك ازدهر الأدب فى ظلال أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة . وما دام كبراؤنا لم يخلقهم الله من الأبطال ولا من عباقرة الرجال ، فهيهات أن ينتجوا الأدب أو يفهموه أو يحبوه أو يعضدوه أو يقدموا أهله . وسيظل هذا النور الضئيل من الأدب القوى الحر محصوراً فى ظلام العمى والجهل ، حتى تقوى الأمة فينتشر ، وينبغ فيها القادة فيزدهر . وسيعيش رجاله القلائل المخلصون معتكفين فى المكاتب اعتكاف النساك فى الصوامع ، يتملونه على بصر الطبيعة ، وينشدونه على سمع الزمن ، حتى تقوى دولة الحق والجمال ، فيجلسوا فى الصدر ويمشوا فى المقدمة »

إن الذى يقرره الأستاذ عن الصلة بين فحولة الأدب وفحولة الأمة أو الفرد صحيح ؛ ولكنى لا أوافقه فى تشاؤمه من العصر لأنه لم يوجد فيه بعدُ أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة. إن الأدب لم يعد اليوم فى حاجة إلى أمير يرعاه أو كبير يشجعه . لقد انتهى عهد الأمراء والكبراء . والعصر عصر الشعوب والأفراد . والأمة العربية الناهضة اليوم بمجموعها عوض عن أمراء الإقطاع فى عهد سيف الدولة . فللأدب العالى أن يزهو اليوم مستقلا بنفسه ، وللأدباء اليوم أن يسيروا فى الأرض غير معتمدين على ذراع أمير أو كبير .

وما نظرت يوما إلى الأديب فى نفسى وإلى أى أمير أو وزير أو كبير إلا وجدتنى أكبر وأشد قوة ، وإلا وجدت هذا الأمير أو الوزير أو الكبير فى حاجة إلى رعايتى قبل أن أكون فى حاجة إلى رعايته ! وهذه هى الدعوة التى يحسن أن نهتف بها للأدب والأدباء ليترفع بعض من لا يترفع منهم ، عن الزلفى للأمراء والوزراء والكبراء ![1]

سيد قطب

(١) فصل من كتاب (كتب وشخصيات) يصدر قريبا